محاولة فى فهم
رواية « السد »

الانسان .. والفعل
فى « السد »

١ ــ تصدير
٢ ــ تمهيد
٣ ــ عرض وتحليل
٤ ــ نقد وتفسير

« ليأمن النقاد المعاصرون اننى لست ناقدا .. ولن أكون .. ! ولكننى انسان يفهم ما يقرأ أو (يحاول) .. » .

عبد الحليم عبد الله

« السد » رواية فى ثمانية مناظر
ــ محمود المسعدى ــ شركة شمال افريقيا ــ طبعة اولى
تونس ١٩٥٥

اهـــداء

الى استاذى الدكتور عبد المحسن طه بدر
مؤمنا بالانسان : .. مناضلا شريفا ..
لتغيير واقعه .. وقدره : الى الافضل

هذه المحاولة المتواضعة جدا ، وقـد
اكتشفها قبلى ندى .. فلم يرفضها ..
فى شهر مايو ١٩٦٦ قبـــل تخرجى

بأشهر .. وفتح الحوار ...

الانسان .. والفعل
فى « السد »

تصـــدير :

لم اكره شيئا على الادب . . والفن . . كرهى ان يتحـــدث الانسان عن عمل ، أو تجربة .. ملخصا .. او شارحا .. او ناقدا وكأنى التقيت مع « تولستوى » فى هذا .. أو اخـــذته عنه أو تعاطفت فيه معه . وهو الذى يرى فى كتابه : « ماهيـــة الفن » : « ان الفن الذى لا يفهمه الشعب ولا يستسيغه لا يمكن ان يكـون فنا مهما ارتقى (١) .. . »

اما الذى يهمنى دائما : ان افكر بالخلق .. بالابتكار .. بالانشاء واما عن وصف لما ارى من اعمال غيرى .. ؟ ! فذاك عندى محض هراء .. محض عبث .. ومحض قسلوة ايضـــا . . ولذلك كنت لا احسن .. ولا اميل الى هذا الصنيع .. « ما انبل الابداع الفنى وما اجمل بناءه المنطوى على الاسرار . وما اشد سماجة اى تحليل لهذا الابداع ، يفض أسراره ، ويشرح جسده النبيل الجميل ... ولا ادعى أننى سأحقق كل هذا (٢) .. »

ولهذا أريد أن تسألنى .. ماذا خلقت ؟ .. ولكن لا تسلنى .. كيف ؟ ولمـــاذا ؟ ومتى ؟ ولمن ؟ واين ؟ ..

---

(١) انظر كتاب « النقد الادبى » ص ٤٠ الدكتورة سهير القلماوى القاهـــرة ١٩٥٩ .

(٢) تأملات فى عالم نجيب محفوظ . ص ٦٣ . محمود امين العالم ــ القـــاهرة ١٩٧٠ .

كان هذا شعوري من أيام * : أتألم تحت جبر نفسي على تحليل رواية « السد » وبسمعي ما يزال ** صدى كلمات حزينة مؤثرة همهما المؤلف بمناسبة أول تشريح لروايته في ندوة أدبية عمومية نظمتها « الجامعة الحرة للثقافة » : « . . أما موقفي أنا أيها السادة فأشبه بموقف العليل يطرح على مائدة التشريح وليس له الا أن يرى الطبيب يتحرك والممرضة تتحرك .. والآلات تعمل عملها .. فهذا بالقطع وهذا بالتشريح وهذا بالتضميد وهذا بالدواء ... والعليل ليس له في كل ذلك الا ان يتحمل الالم ويلتذ بالدواء ان وجد منه راحة (١) .. » وسكت قليلا ثم قال : « ... والحقيقة انه ان كان لا يوجد في هذه القاعة شخص ليس له الحق في أن يتكلم في السد فهو أنا .. » .

وان كنت مسبقا أعرف عجزي عن ذلك .. وكرهي لذلك ... وصعوبة الرواية .. واقحمت على مضض يرهقني .. لاقول عن السد : كلمات .. هراء ؟ فسأحاول .. كما حاول .. غيلان .. « الفعل » وبسمعي ضجيج كلمات : « أبدا الالهة لا يهمها ما يقال عنها .. ؟ وانما يهمها ان تخلق عوالم وتنصرف لشأنها » .

واحترقت : بحثا .. وجمعا .. ولما .. لاشتات فكري ؟

---

* انتهى ... كمقال قصير في افكاره الرئيسية في مارس ١٩٦٦ لكن حواري امتد معه ـ فلم يتنكر احدنا للاخر ـ تطويلا .. وتوسعا . . وزيادة في المراجع دون الجراة على كتابته وتنظيمه من جديد .. ! واعترف بتقصيري في عدم ذلك ..؟ وكأني خفت بذلك ان اتلف شيئا من عفويته .. ! بل كنت ارهب من النزول اليه مرة ثانية تاركا امر ذلك الى غيري .. ؟ .. اذ النزول اليه ـ السد ـ شاق كالصعود منه ..

** حضرت الندوة « فيفري ١٩٥٧ » وقد نشرت الكلمات في عدد خاص بمجلة الفكر ، مارس سنة ١٩٥٧ تونس .

(١) مجلة الفكر ـ مارس ١٩٥٧ .

لاكتب عنه مع ذلك كله : اعمى .. اصم .. بليدا .. ولست غير ذلك امامه .. ؟

وكأننى « أنا » ايام صدوره لسنوات خلت .. التهمته بدافع الفضول أو التطلع أو حب الظهور دون ان اعى منه شيئا سوى كلمات مرصوفة .. واشباح غريبة .. ومقاصد وافكار لا تفهم .. !

وبقى يراودنى الحنين اليه كلما تقدم بى الزمن لحظة عنه ... واحد ادباء العصر قال عن نفسه بعـــد قراءته له اكثر من مرة : « ولست ادرى افهمت القصة أم لم افهمها ؟ ! . » (١) .

ولست ادرى اذا استوعبت « المسعدى » فكرة « بوالو » : «ثمة نوع من المجد فى الا يفهمك احد » .

و ــ انا ــ اذا فعلت شيئا .. ؟ فيخيل الى ذلك ! وما فعلت .. مستعيرا من مدام « دى استال » Madame De Stall قولها الشهير فى قصة « فاوست » Faust لجوته لمـا قراتها لا قوله هنا : « ... ان هذه القصة تضطرك الى ان تفكر فى كل شىء والى ان تفكر فى أمر آخر فوق كل شىء (٢) .. »

وكما قال أيضا عبـــد الكريم الاشتر عن « مرداد » نعيمه : « ... لقد حاول نعيمه أن يضـع كتاب الحياة كلها باتجاهاتهـا الكبيرة والصغيرة : بان يصوغ نظرية فلسفية عامة (٣) ... » ولكنه: « عمل فنى على نطاق ضيق » كما قال ناقد رايه فى رواية لكاتبة انجليزية اهدتها له ؟

---

(١) مجلة الفكر مايو ١٩٥٧ « طه حسين » .
(٢) « فاوست » جوته ــ ترجمة الدكتور محمد عوض « المقدمة » .
(٣) النثر المهجرى ــ عبد الكريم الاشتر .

ومنذ البدء انبه القارىء الى انه سيجد نفسه معى خلال هذا الحديث فى دوامة عنيفة .. لان الماء من « السد » يندفع .. غزيرا فمرة يأخذ السير الطبيعى للارض .. واخرى يشق لنفسه طريقا .. ثم يعود .. وهكذا ..

والحقيقة ان « السد » عمل ادبى عملاق فى الادب العربى المعاصر بتونس ـ فى دنيا الرواية ـ تفخر به مثلما تفخر بديوان شعر واحد هو « أغانى الحياة » لابى القاسم الشابى ، وما عدا ذلك لحد الان فهى محاولات **جاهدة** .. مخلصة تبحث عن نفسها .. ولم تصل الى المستوى الذى يخول لبعضهم ليلهث ضمنيا بانه أصبح من الادباء الكبار وأن الادب فى بلده وفى المغرب العربى عموما مهضوم الحق فى الجناح الشرقى من الوطن العربى .. وهى قضية مفتوحة منذ القديم وستبقى ما بقى الشعور والاحساس بالاقليمية ، ولهذا بعضهم يرفضها ، وآخرون يتعصبون لها تذكيرا او احياء لما قيل : « هذه بضاعتنا ردت الينا » وهو تفكير فوقى ، تسلطى ، اقليمى نرفضه وندينه فى « التراث » كذلك .. خير لهذا أن يحترم نفسه ورفاقه .. وان يترك الادعاء .. لانه ايضا ينكر على المسعدى * (١٩١١) : اديبا فى « السد » .

تمهيد :

« السد » ** رواية تبدأ بالحوار وتختم به .. كانها مسرحية قد كتبت لتقرأ لا لتمثل وهذا جانب من جوانب العجز امامها !

---

* للمسعدى ـ أيضا ـ « حدث أبو هريرة .. قال » و « مولد النسيان وتأملات أخرى » وفيهما لا يبتعد كثيرا عن أسلوبه ولا عن تفكيره فى « السد » . وتجد بالارلى « ترجمة للمؤلف فى سطور » .

** حاول الاستاذ الشاذلى القليبى ان يثير اكثر من قضية .. فى مقدمته للسد بارعا فى تكثيفها وتعميقها .. متصلا بمشكلة « الفعل » .. ماتزما ـ فقط ـ الاخلاص « للفكر » الامر الذى لم يراعه غيره فى مقدمته ..

تشتمل على ثمانية مناظر .. يتوزع الحياة فيها : كائنات متناقضة متصارعة .. غريبة عن بعضها .. كل مشدود الى عمل يؤديه .. ؟ كعالم الرب تماما أو كأعماق الانسان بما فيه من تناقض واخلاط وعناصر وميول متضاربة .. وهذه الحياة مركوزة بين جبل وواد .

«ميمونة » امراة .. « غيلان » رجل كائن زائف .. « ميارى»: خيال وطيف وحب وجمال « بغل ذكى ، ذئب ذو عواء . اطياف وهواتف .. »

عالم الانسان : امام نفسه والطبيعة والكون .. وشتيت القوى المجهولة والاساطير والالغاز مريدا ان يكون فيه ربا قويا جادا .. صارما ماكرا .. مهدما عوالم وقيما وعادات ورتابة .. ليقيم عالمه الافضل : عالم الخلق .. والفعل .. والابتكار .. والانشاء .. عالم الحركة القادرة .. عالم الفعل الصرف .. وكانه « سارتر » يقول: « فعلا » لا كلمات : .. انت لست الا حياتك .. انت لست الا ما صنعت .. » .

وجودى .. يترجم عن الاعماق والعضلات وهو اليها اقرب ، يتمزق امام هول اعتقاده : الفشل نهائيا .. ولكنه مشدود الى فعله بمرارة « كسيزيف » تماما مشدود الى عمل .. ! لكنه يعتقد جدواه ويعلق عليه آمالا وهو عنيد يلقن « نيتشة » دروسا فى الصرامة والقوة ، والايمان بالتغيير والكفر بالنواميس والعراقيل .. ومثل الالف والعادة .

عرض وتحليل :

... على منحدر* جبل اخشب غليظ حزيز نباته كالابر وارضه

---

* حرصت .. ليكون تلخيص «الرواية» ـ وهو عمل مكروه ـ طويلا وبه الكثير من كلمات المؤلف وتعبيراته .. لان الرواية مفقودة فى مكتبات الشرق العربى ، ثم للفكرة الرائجة عنها بانها عمل صعب ، وغامضة الموضوع والهدف .